

فلسطين في مرايا الثقافة العربية

جليلة بكار*

البحث عن عايذة**

(مونودراما عن المأساة الفلسطينية)

لماذا نعود إلى عايذة؟

منذ عشرين عاماً، وقفت الممثلة والكاتبة التونسية الكبيرة جليلة بكار على خشبة "مسرح بيروت"، كي تلتقي بعايذة.



كان ذلك في سنة ١٩٩٨، حين نظم "مسرح بيروت" مجموعة من الأنشطة الثقافية والفكرية والفنية من أجل إحياء الذكرى الخمسين للنكبة، تحت عنوان: "٥٠ نكبة ومقاومة".

هذه الاحتفالية الكبرى التي دامت ثلاثة أشهر متواصلة، في قاعة المسرح المكتظة بالناس الذين أتوا ليعبروا عن عطشهم إلى فلسطين، وسط ذلك التصحر الثقافي والسياسي الذي عاشته بيروت، كانت رسالة حب إلى فلسطين وإلى الفلسطينيين. عبرنا عن حبنا عبر كسر جدار الصمت الذي لف المخيمات بالمذابح والحصار والحروب الوحشية.

في لحظة بدت أشبه بالسحر عادت بيروت عاصمة للثقافة العربية، والتفت كوكبة من

الفنانين والمثقفين العرب واللبنانيين حول الاسم الفلسطيني الذي أعطى العروبة فكرتها الجديدة بصفتها رؤياً للحرية والتحرر من الاحتلال والاستبداد.

* كاتبة وممثلة تونسية.

** فاميليا للإنتاج. الإخراج: الفاضل الجعايبي؛ التوضيب: نرجس بن عمّار؛ توضيب الإنارة: أحمد الحاج محمد؛ إدارة الإنتاج: الحبيب بالهادي. الشكر والامتنان إلى: قيس رستم؛ نصري حجّاج؛ هشام الشيرشي؛ إدارة فضاء مدار قرطاج.

جاءت جليلة بكّار التي عرفها جمهور "مسرح بيروت" في مسرحية "فاميليا" التي أخرجها الفاضل الجعايبي. في "فاميليا" أدهشتنا هذه الممثلة التي نجحت في تحويل تعابير وجهها وجسدها إلى مرآة للزمن، ودخلت في متخيلنا نموذجاً لقدرة المسرح على التحول إلى ملعب للرويا، وفسحة للتأمل والمتعة وإعادة النظر في الكيفية التي نرى من خلالها العالم. مسرحية "عايدة" التي هي مونودراما من إخراج الفاضل الجعايبي، احتلتها ممثلة وحيدة تبحث عن عايدة الفلسطينية لتجدها في داخلها. هذا التزاوج بين جليلة وعايدة، وبين العامية التونسية والفصحى، يعطي هذا النص بُعداً فني والسياسي والأخلاقي، وهو بُعدٌ متعدد المستويات يعلن أن فلسطين هي شعبها الذي يدافع عن حقه في الحياة، وهي مقاومة لم تتوقف منذ سبعين عاماً في مواجهة نكبة صنعها الآلة الصهيونية العنصرية التي لا تشعب من التهام الأرض، ولا ترتوي من دماء الفلسطينيين والفلسطينيين.

وقفت الممثلة وحيدة مع صمتها ولغتها، كي تعيد المعنى إلى المعنى، وتأخذنا إلى أسرار البحث عن الحرية.

عندما عدت إلى قراءة هذه المسرحية التي صدرت في سنة ٢٠٠٢ عن دار الجنوب للنشر في تونس، مع مقدمة كتبها المخرج السينمائي الفلسطيني نصري حجّاج، أحسست بأن هذا الملف من "مجلة الدراسات الفلسطينية" سيبقى ناقصاً من دون "عايدة". فجليلة تضيف إلى الأعمال المسرحية الرائعة، مثل مسرحية "الاغتصاب" لسعد الله ونوس التي أخرجها جواد الأسدي، وأعمال روجيه عساف، وجمال خوري، نكهة تونسية خاصة، فهي تروي فلسطين كي تروي تونس أيضاً.

كتب حجّاج في تقديمه: "تحضر فلسطين في هذا النص ليس للبكاء، وإن كانت تحمل وجعاً لا نستطيع أن نتداركه، ولكنها تحضر مثل ضوء ساطع يكشف الغطاء عن الوهن والشحوب في البنى السياسية."

هذا الضوء بهر عيوننا، ليثبت مرة أخرى أن المسرح التونسي يشكل علامة أساسية في مشهد البحث الثقافي العربي عن الجديد والمعبر.

أعمال الجعايبي وبكّار وتوفيق الجبالي ورجاء بن عمّار وبقية الكوكبة التونسية الجميلة، يجب أن تكون في زمن "الربيع العربي"، مركز الاهتمام الثقافي الذي ينهض على الرغم من كيواته.

نقرأ "عايدة" من جديد، كي نكتشف ومض الحرية الذي يمتد من تونس إلى فلسطين، ونستعيد جزءاً حياً من ذاكرة الحرية.

!خ.

المدخل

تتساءلون لماذا أبحث عنها هنا؟
لأنني أعرف أنها هنا
وكيف أعرف أنها هنا
لأنها تعلم أنني هنا
بديهي... لا؟

لعلها خرجت من هنا إلى مكان آخر

مجهول

عايدة

عايدة... علاش ما تحبش تقابلني؟

صارت حاجة قلقتك؟

عايدة

نعرفك هنا

علاش ما تجاوبنيش

تحبهم يقولوا عليّ

مجنونة تحكي مع مجهولة

لا عايدة

ماكش مجهولة

صورتك دابغة هوني

نغمض عيني نراك

نلهم تغيب

مهلة

منذ أن تعرفت عليك

لم أتخلف ولو مرة على موعد معك

عايدة

عايدة...

كم كنت سعيدة

قبل أن أسمع عنك

وأن أتعرف عليك

وقبل أن أدرك

إمرأة في السادسة والأربعين من عمرها

في يدها ملف

تدخل كأنها تبحث عن شخص

تحقق في المتفرجين

تقف أمام منصة

عايدة... عايدة

جيت على خاطرک

نحب نراك... نشوف ملامحك

نسمع صوتك... ضحكتك

ما زلت تعرف تضحك؟

نظرتك ما زالت حادة حيّة وإلاّ طفات

شعرك... طويل... قصير... مسرّح... مسيّب

وإلاّ محجوب عن الأنظار

آش بيك ما تحبّش تقابلني

بالك تظن جيت لهنّا

باش نمثّل

لا... جيت وحدي... بقديّ

... بلا قناع

ماني مختفية وراء أي شخصية

مسرحية

... نحب نقابلک

... نراك...

نحكي معاك...

العين في العين

جيت على خاطرک

عايدة

تتوجه نحو الخروج

ثم ترجع

أنه توجد في هذه الدنيا
أرض اسمها
فلسطين

I الموقف

| | |
|--------------------------------------|-----------------------------------|
| تحميل الملف | تقرأ |
| ثلاث سنوات؟... | عايدة |
| ماذا كنت تفعلين؟ | جئت لأتذكر معك |
| تلعبين؟ ترقصين؟... تضحكين؟ | الذاكرة شيء جميل |
| تغنين جاهلة ما كان يحدث | رائع وقاسٍ |
| عايدة أتتذكرين؟ | في نفس الوقت |
| أتتذكرين خوف أمك وجدتك | صور... |
| أمام القصف اليهودي على يافا، مدينتك؟ | روائح... |
| أتتذكرين خوف أبيك... عندما رجع في | أصوات... |
| الصباح الباكر | أحاسيس... |
| بعد ليل قضاه في الدفاع عن يافا | حتى لو حاولنا فسخها... |
| ضمن جيش الإنقاذ؟ | فهي تبقى غصباً عنّا... |
| أتتذكرين صوته | عايدة... أعرف |
| وهو يحاول إقناع أمك وجدتك | أعرف أنه |
| بالهروب على متن باخرة | عندما كانت عائلتي ومدرستي تعلماني |
| ستبحر إلى بيروت؟ | أنه شيء أساسي وطبيعي |
| أتذكرين استسلامه أمام رفض جدتك | أن تكون لنا أرض |
| مغادرة المدينة التي ولدت فيها | أن يكون لنا وطن |
| والتي دفن فيها زوجها؟ | بيت يحمينا |
| أتتذكرين موافقته على اقتراح أمك | نعيش فيه أسياً |
| الانتقال بكم إلى بيت أخيها في حي | كنت أنت منذ أعوام |
| العجمي | تعيشين السنوات الأولى للمأساة... |
| حتى تهدأ الأمور... | عايدة |
| أتتذكرين؟ | كم كان سنك في ذلك اليوم من أفريل |
| | ١٩٤٨؟ |

* تقعد على الكرسي وسط الرُكح

وتقول لك "أغمضي عينيك
أغمضي واستنشقي...
عطر... رطوبة
بقايا برتقالة..."
ثم تأمرك بفتح عينيك
"انظري... انظري... إلى الحيطان وإلى
السقف
إلى المفروشات والصور... الكراسي والستائر
انظري وسجّلي
سجّلي كل ما ترينه يا ابنتي ولا تنسي
شيئاً..."
وتتجول بك من غرفة إلى غرفة
ثم تخرج بك إلى البستان الصغير
المزروع ليموناً وبرتقالاً
وتهمس لك
"استنشقي رائحة البحر
ممزوجة بأريج أزهار البرتقال
سترجعك إلى يافا أينما كنت...
انظري إلى بيتنا
بيتنا من حجر وسقفه قرميد..."
ثم تقفل الباب وتسلم المفتاح إلى أمك
كانت آخر مرة تشاهدين فيها بيتكم
في حي الرشيد... في يافا
في يوم من أيام أبريل ١٩٤٨.

صمت

نعم... أعرف أنك تتذكرين
تتذكرين كل هذه الأصوات والوجوه
وأنت بينهم تحديقين في وجه ثم وجه
متسائلة متى... ستستطيعين اللجوء
إلى الشاطئ أمام البيت
لتلعبى وتبحثي عن الصّدف
حتى تكلمي العقد الذي بدأت جدتك صنعه
لك
تتذكرين
تتذكرين قبلة أبيك المبللة بالدموع
ودهشتك أمامها
إذاً الرجال أيضاً يكونون!!...
تتذكرين رائحته.. وهو يضمك إليه
عرق... مسك... عطر فواح...
وترينه
ترينه يخرج
ترينه لآخر مرة...

صمت

وترين أمك تأخذ حقيبة
وتملأها ملابس وحاجيات يومية..
وترين جدتك تنظر إليك
ثم تمسك بيدك وتضمّ
قائلة لك "اتبعيني... اتبعيني..."
فتدخل بك إلى الغرفة الأولى

الموقف II

تهز كتاباً قديماً
تُخرج منه تصويره مستصغرة
توزي التصويرة

الممثلة تنتقل
تنزع كبوطها تعلقه
تقاف قدام طاولة

٤٨... أنا ما زلت ما تخلقتش
 أمّا خال أمي... خالي عبد الرزّاق
 تطوّع مع آلاف التوانسة...
 يحب يدافع على فلسطين
 قطعوا ليبيا ووصلوا للحدود المصرية
 وقفوهم وسجنوهم...
 قالوا له "روح حرر بلادك...
 بلا فلسطين..."
 مات من غير ما يفرح بفلسطين
 أمّا تونس تحررت...
 عام ٥٦
 وقتها أنا تعرفت على اليهود... يهود تونس
 عرفتهم قبل ما نعرفك... عايدة
 قرون متعاشرين مع العرب
 بعدما هربوا من الأندلس
 وحتى قبل
 هجّوا مشاؤا من تونس
 واللي قعدوا قلايل
 يهود تونس
 نحكيو عليهم في فرصة أخرى.

ترجّع الصورة في الكتاب
 خالي عبد الرزّاق الله يرحمه

الموقف III

ترجع للمنصة
 تقاف قدامها

تبعد عن الطاولة
 تقاف وراء الطاولة

أريحا أول مدينة فلسطينية نسمع بيها
 في مارس ١٩٦٥
 حتى القدس كنت نظنّها في السعودية قرب
 مكة
 أريحا، زيارة بورقيبة وخطابه
 بورقيبة تتذكروه؟... دفنتوه ونسيتوه أنتو
 ما زاده؟
 مارس ٦٥... وقتها عرفتك... عايدة
 قداش كان عمرك
 عشرين سنة...
 طالبة، أش كان وعيك؟
 حضرت على الخطاب؟...
 كنت من بين اللي سبوه... وشموه؟
 وإلا من بين اللي سمعوه...
 إحنا في تونس سمعناه...

اليهود الذين تعرفت عليهم أنت
 جاؤوا من بولنדה..
 تقاسموا معكم بيت خالك في حي العجمي
 حي العجمي الذي قضيت فيه عشرين
 شهرا
 فُقد خلالها أبوك
 وولد أخوك ناصر
 عايدة
 أتتذكرين يوم رحيلكم إلى أريحا...؟
 أتتذكرين أين سكنتم؟
 في غرفتين من طين
 في أحد البساتين
 بعيداً عن يافا
 بعيداً عن البحر

الفايدة موش في الكلام والخطابات الرنانة
الفايدة في الفعل
المصرية [المصريون] معروفين فراعنة...
ما يحبوا كان كلمتهم اللي تمشي
خالي عبد الرزاق موش طردوه عام ٤٨
وقالو له "روح حرر بلادك، بلا فلسطين"
وإحنا انفجموهم* اليهود؟
كان جاو وحدهم يمكن
أما معاهم الأنقليز والفرنسيس
باش يمسخوا ذنوبهم معاهم
هداولهم بلاد العرب... ملاً غلب!!

تبعد عن الكرسي

رَبِّي معانا
ربي علاش معانا وموش معاهم أمي؟
على خاطرنا مسلمين
العرب موش الكل مسلمين
هاو مسيو صابا Monsieur Saba جارنا
عربي سوري من حلب وأستاذ عربية
وحامل صليب على صدره هو ومرته
بكل صفة الفلسطينيين مسلمين
جاوبها بابا: فيهم المسيحيين...
سكتته: عرب... فلسطين عربية

تدور

تبعد

تقاف

إحنا معناها أمي وبابا وأنا قد الشُّبر
نسمع ونتساءل
الإذاعة التونسية تشكر وتمجد في الشجاعة
الأسطورية
وفي الرأي السديد للمجاهد الأكبر...
وصوت العرب في القاهرة
تسبّ وتشتم في الخائن الأكبر للقضية
وللأمة العربية... عميل الإمبريالية...
والصهيونية
والزبدة المرحية
وأنا داهشه
أش نية فلسطين؟؟

وبابا يشرح...

"بلاد عربية

افتكّوها احتلوها لنا اليهود

وواجبنا نحرروها... كيف ما حررنا تونس
والجزائر"

تقاف قدام الكرسي

إحنا؟

إيه إحنا!

إحنا التوانسة؟

لا... إحنا العرب!

آه...

وأمي متعاركة مع جمال عبد الناصر

أيامها كرهته

أش بيه عربي أكثر منا؟

كل واحد ورأيه

الموقف IV

| | |
|--|---|
| تمشي للطاولة | نحسبو في أعداد الموتى... |
| تاخذ سيكارو | المجاريح... المفقودين... الأسرى |
| تشعله | جيش عرمرم مسلّم بسلاحه وبعته |
| | للصحراء |
| عايدة | هارب حافي... |
| علاش ما حبّيتش تُجيّ؟ | الطلبة خرجوا يتظاهروا ضد الصهيونية |
| علاش ما حبّيتش تسمعني؟ | والإمبريالية... |
| تعرف؟ كل ما عشته أنت عشته أنا معاك | ووحدة من الجيش التونسي يقودها |
| بقرة قوية... وبغل كبير... | الضابط الشابى |
| كيفاش تحبني ننسى هاك الصباح الأظلم... | ابن أبو القاسم الشابى الشاعر اللي كتب |
| صباح ٥ جوان ١٩٦٧...؟ | فعولن فعولن فعولن فعول |
| الهزيمة... الخيبة | "إذا الشعب يوماً أراد الحياة.. |
| نكسة أخرى لجبل آخر من العرب | ... فلا بد... أن يستجيب" |
| أنا راقدة وأمّي تفيّق فيّ وتبكي... | فعولن فعولن فعولن فعول |
| - قوم... قوم... الحرب... الحرب | الوحدة كانت تستعد لالتحاق بالجيش |
| - وين... عندنا...؟ | العربية الأخرى |
| - إيه هجموا على مصر وسورية والأردن | أما عمرها ما عدّات الحدود التونسية |
| الدنيا وقفت... | الوقت ما كفاهاش |
| الإذاعة تبكي... تبث في أناشيد وطنية... | سته أيام... سته أيام برك وتهزمت الجيوش |
| "يا شباب العرب | العربية |
| يا أهل الحميّة | سته أيام... الوقت اللي مكّن الرب الأعلى |
| هبوا للطلب | من خلق العالم حسب التوراة والإنجيل |
| بقلوب قوية | واليوم السابع ما ارتاحوش |
| يوم الاتحاد | تقبلوا تهاني العالم المنبهر |
| فلنكن جميعاً | أمام معجزة ها الجيش الصغير |
| ننادي لتحيا | اللي محق جيوش منطقة كاملة |
| الأمة العربية | David ضد Goliath |
| وقولوا لتحيا... | David وقف وتكسّل |
| الوحدة العربية" | مد ذرعانه وتوسع |
| وأنباء من المصادر العسكرية | ولمّ على الكل |
| النفس مقطوع | حتى القدس... |

وفي مخيم البقعة.. تزوجت...
 في شبه بيت...
 لم تكن فيه شجرة برتقال
 ولم تكن فيه ولو زهرة واحدة...
 لكن أمك أهدت لك المفتاح
 وقالت: "لا تخافي يا ابنتي
 إننا لراجعون إلى بيتنا...
 وسأعطيك غرفتي
 وتختي... وجهازي...
 وستخلفين بنتاً
 وتزوّجينها تحت شجرة البرتقال...
 لا تنسي بيتنا من حجر وسقفه من قرميد..."
 أخذت المفتاح... ومنذ ذلك اليوم...
 وكل صباح... أينما كنت...
 قبل أن تفتحي عينيك...
 تفتحين باب بيتكم في يافا
 وتتجولين فيه من غرفة إلى أخرى...
 تتلمسين الحيطان
 تتكئين على التخت...
 تفتحين الخزائن والشبابيك
 لكي تخرج رائحة الرطوبة...
 تطوين الشراشف
 تمسحين صورة أبيك وأمك... يوم زفافهما
 وتقبّلين صورة جدتك...
 ثم تقفلين البيت بالمفتاح
 وتفتحين عينيك...
 لتواجهي يوماً جديداً آخر
 من أيام التشرد والضياع...

صمت قصير
 تطفئ السيكارو

ويقولولي انسَ

ظلام

عابدة أعرف لماذا ترفضين الاستماع إليّ
 لأنه في ذلك الوقت
 عندما أدركت أنا
 عمر الحب الأول ورسائل الغرام
 عشت أنت أشياء كثيرة
 في تلك الفترة... ماتت جدتك ودُفنت في
 أريحا
 ودخلت أنت المقاومة...
 وتعرفت على "سيف"
 "سيف" حبك الأول والأخير...
 معه وقفت...
 ومعه قاومت... وصمدت...
 ومعه حلمت...
 ومعه دافعت...
 ومعه قاتلت...
 ومعه قلت... أريد... أريد شيئاً آخر

يرجع الضوء
 تقعد على الكرسي

ومعه خرجت من فلسطين
 من فلسطين إلى عمان

V الموقف

وتقول لا... لا... لا...
 "نحن هنا وموجودون والتاريخ لن يُكتب
 بدوننا"

هذا ما قاله الشباب
 في ميونيخ في ألمانيا
 ألمانيا وماضيها القريب
 الألعاب الأولمبية...
 رياضة وسلام
 وغرب متناسي
 حامل نظارات سوداء...
 صرخ وقال...
 "ما هذه الوحشية...
 أقتلون يهوداً مسالمين...
 تباً لعديمي الإنسانية"
 كم كنت معتزة عايذة بتلك الوحشية
 عايذة... كان تعرف
 قداش حبيتك وقتها...
 قداش اشتهيت نضمك ونقبك إنت
 وأصحابك
 ما كنتش معاهم...
 وين كنت؟
 من مخيم إلى مخيم
 من بلد عربي إلى آخر
 ومن حرب إلى حرب
 من مخيم البقعة في عمان
 لمخيم اليرموك في الشام
 ثم إلى بيروت

ترجع للطاولة
 تعبي كأس ماء
 تشرب

سنة ٧٠
 ناصر مات وأمي بكات
 - علاه يا أمي؟...
 - على خاطر مات مغلوب...
 والمغلوب انقلب على المغلوب
 وكان سبتمبر الأسود...
 ودخلت التلفزة للبيوت...
 وصرنا نشوف... والمخبّي صبح مكشوف...
 يهود تمحي في آثار العرب
 تبني وتشيد على أراضيها
 وعرب تتقاتل عن بكرة أبيها...

ترجع للمنصة

ما عاد فاهمة شيء... وما عاد نحب نفهم
 حتى شيء
 "لا... يلزمك تفهم"
 من واجبك إنت تفهم"
 الرفاق قالوا
 ... ٧٢ - ٧٣ ...
 الديدن مرفوعة
 الطلبة تتظاهر على كل شيء
 مقتنعة أنه في إمكانها تغيير الأوضاع
 يكفي أنها تخرج

VI الموقف

| | |
|---|--|
| <p>تخاطب القاعة</p> <p>ربما هم في لبنان لهم تفاسير منطقية... دينية... طائفية موضوعية... سياسية... استراتيجية تاريخية... جغرافية لنوعيات التحالف والتعادي أما إحنا في تونس كيفاش تحبنا نُتَّبَعُو... بالنسبة لينا لبنان جن... جن... وجنونه يَتَمَّ "جفرا" ورمّل "عايدة" لم تعرفي من أين أتت الرصاصة لكنها أتت... أهي من قناص مجنون أم من عدو مهزوم أم من حليف مأمور..؟</p> | <p>تبعد عن المنصة</p> <p>عائدة... عايدة تعرف اللي أول مرة كدنا نتقابلو فيها سنة ٧٣ كانت في لبنان أنا جيت في أوت وإنت بعد حرب أكتوبر كان أول جواز سفر لي... أول سفر... وأول عرض خارج تونس في مهرجان "دير القمر" بمسرحية "جحا أو الشرق الحائر" سمعت بيها؟ الشرق البعيد... القريب... وانت كنت حامل ببنتك "جفرا" اللي ولدتها في ٧ ديسمبر ٧٣ سيف سماها... على أمه كان مجنون بيها وإنت أحلى ثلاث سنوات قضيتهم رغم كل شيء... وخاصة رغم الحرب حرب لبنان...</p> |
|---|--|

VII الموقف

| | |
|---|---|
| <p>تخاذل المثقف وانتهازية الأغلبية</p> <p>ترجع للمنصة</p> <p>سبتمبر ٨٢ باخرة قادمة من بيروت إلى أرض الوطن باخرة قادمة من بيروت إلى تونس</p> | <p>عايدة تونس إحنا زادة في تونس ما كناش عايشين في جنة ما ثماش حرب أما صعيب تدافع على رأي... وتتمسك بموقف أمام ضغوطات وتناقضات الحاكم،</p> |
|---|---|

لم يُطردوا من بلادهم فحسب
بل من المنطقة كلها
كان أخوك ضمنهم
جاء إلى تونس... وترك زوجته وأبناءه وأمه
أما أمك فقد فضلت البقاء في بيروت
تركهم أخوك كلهم في صبرا وشاتيلا...

يملاًون
البيت ضحكاً وصياحاً
يلعبون في الشاطئ...
يصطادون السردين...
ويبحثون عن الصدف*

صمت

كتبتُ "لام" عام ٨٢ ولم تُقدّم في الصيف
مُنعت المهرجانات الصيفية
حداداً... إثر الاجتياح
ولم تقدم إلاّ يومين بعد وصول باخرة
الفلسطينيين

ترجع للطاولة
تأخذ الكتاب

ليس لي أي تعليق
الهواء قلّ
الكلام ثقل... ما عاد عنده معنى
جالسون أمام تلفزيوناتنا... نرى ونسمع
تعاليق التلفزيونات الغربية
كان الغرب
متأثراً... متأثراً... متأثراً...
فقط...

تونس ٨٢
الجرح معفن
والياس مسيطر
والغضب طالع
غضب ضد العدو الغاشم
ضد الحاكم
السلطة اللي سكرت علينا البيبان
ضد جيلنا اللي سَلّم
وغرق في عركات جزئية
ثانوية وعقيمة
ما العمل؟
وقفه على ركح مسرح صيحة...
المسرح منّعنا*
المسرح أعطانا رقعة نتنفس فيها
فكانت لام للمسرح الجديد
لام تناغم على ألف لام ميم

وبكت جفرا
وبكت جفرا على جدتها
وبكت جفرا على جدتها وعلى أبناء خالها
فاحتضنتها عايدة وقالت لها
"لا... لا تبكي..."
انظري
المفتاح عندي...
مفتاح بيتنا في يافا...
بيتنا من حجر وسقفه قرميد
وحوله بستان
فيه شجر ليمون وبرتقال
ستكبر ابنتي وسأزوجها تحت شجرة البرتقال
وستخلف أبناء

* أعطانا منّعة.

ومنها ألم
ومنها أمل
ومنها مال
ومنها لام
لامٌ يلومٌ لوماً
وانتحر

”يا ناس.. يا أحبابي
عرفتكم أحرار
ريتكم تتظاهروا
شفتكم تجريوا
العين نار
الذراع يتوعد
الريق ناشف

لام مسرحية تنبئية
تحكي الهزيمة
أسود قاتم

والكلام جهار
شفتكم تبكيوا
على الرجال المغلوبة
النساء المحجوبة
اليدين المضروبة
الحقايق المقلوبة
الأرض المغصوبة
والآمال المصلوبة
فينكم يا أصحابي؟
أش صادقكم يا ناسي؟
أش بيه حسكم قل؟
أش بيه ذراعكم مل؟
أش بيه راسكم دل؟
أش بيه شرابكم يا أحبابي
أش بيه شرابكم.. خل؟...”

خطاب متشائم في غرفة سوداء
وطفل في الثالثة عشرة من عمره
يقطع لسانه
ويكتب بدمه على المرأة
”الهواء قلل
والكلام ثقل
ما عاد عنده معنى”

تحمل الكتاب
تقرأ

ويقول قبل ذلك

VIII الموقف

وتنسى...
تونس اللي عاشت أيام صعبة
بين أحداث ٢٦ جانفي ٧٧
تصادم فيها البوليس والجيش مع
النقابيين
وأحداث الخبز في جانفي ٨٣
تونس أصبحت قبلة الزائرين
ومفترق ثنايا
من اللي احتضنت منظمة التحرير

تونس
تونس اللي أصبحت منذ سنوات قليلة المقر
الرسمي
للجامعة العربية
بعد ما مشى السادات للكنيست
وجلس بين بيغن وموشيه ديان
بعد ما صافح وقبل
وإحنا نتفرجوا باهتين
دم شهداء ٦٧ شربته الصحراء...

المقاوم الفلسطيني اللي استشهد في بيروت
 تقول لـ خليل صاحبه التونسي المهزوم
 والمسلم
 "إنت ما توّمن بشيء
 وأنا نوّمن بتوّه.. بغدوه
 ببعده غدوه
 نوّمن بهذا"
 تضع يدها على بطنها
 "لو كان نخم لحظة
 اللي باش يطلع لي كيفك
 مهزوم... مسلم...
 نفرّي كرشي حالاً
 نفقسه في سطل ماء
 نحبه حر
 كيف بوه
 يسوى ألف من بوه
 يكبر لي شوكته واقفة
 أنيايه تشرّق
 غليظ...
 شديد...
 مقدم...
 منتقم...
 رابح...
 منتصر...
 معزّ...
 قوي...
 محارب...
 مجاهد...
 صامد...
 عاشق...
 عالم...
 فالح...
 ذكي...

أكتوبر ٨٥
 العاشرة صباحاً
 انفجار
 الإذاعة التونسية: "علمنا أن طائرات حربية
 مجهولة الهوية
 قد قامت بقصف جوي
 على منطقة حمام الشاطئ"
 طائرات مجهولة الهوية؟
 مجهولة الهوية حتى آخر العشية!
 أمّا التلفزة الإيطالية
 من الصباح
 خبرت آش كونهم
 منين جاوا وكيفاش
 وجاوبت على بعض تساؤلات التوانسة
 أسئلة... أسئلة...
 رسمياً بلا أجوبة
 أسئلة
 أسئلة ابتلعناها وأخفيناها
 لكي لا توّدي بنا إلى شعور جديد
 لم نعرفه من قبل...
 الشعور بالذنب...
 لكن هذا الشعور وجد طريقاً جديدة
 ولجمت مشاعري وسكنت أحلامي
 نمت ليلة فحلمت بنفسي حاملاً
 جنين في بطني... له كل الصفات التي
 تمتلكها اللغة العربية
 فكانت عرب
 مسرحية أخرى للمسرح الجديد
 سنة ٨٧
 مسرحية تحكي الهزيمة
 ترفض الأمر المقضي
 والحاضر المر
 تقول فيها حورية الحبلى من سيف

صمت

سخي...
طيب...
حليم...
نولده بعيد عليكم
معشر الخاسرين"
يجابها خليل
"هذا موش بطل

هذا هو المهدي المنتظر"

الهزيمة أصبحت شيئاً عادياً
يعايشنا
يواكبنا في كل حين

الخاتمة

تغيب وترجع بجانب الطاولة

أسئلة أخرى
أسئلة... أسئلة
وأجوبة... لم تكن مقنعة

حتى اندلعت شرارة أولى لأمل جديد
في ٧ ديسمبر ٨٧...
عندما مسك أول طفل فلسطيني من مخيم
جباليا في غزة
أول حجرة
ورجم بها أول جندي يهودي
فوقفنا وراء هذا الطفل
معتزين بهذا الجيل الجديد...
جيل ابنتك وابنتي...
لكنهم أتوا
إلى هنا
إلى تونس
في أفريل ٨٨
أتوا في عتمة الليل
واغتالوا أبو جهاد
لكي يطفئوا شرارة
أوشكت أن تكون ناراً حارقة
كيف أتوا؟
كيف وصلوا إليه؟
ألم يكن تحت حماية
سيدي بوسعيد الباجي؟

وأدّت هذه الشرارة إلى المصافحة
مصافحة ١٣ سبتمبر ٩٣
فغابت عني أخبارك...
عابدة لماذا؟!... أين أنت؟
حاولت الاتصال بك عدة مرات
جنّتك إلى بيروت عام ٩٤
بمسرحية "فاميليا"
مسرحية حول الذاكرة
جنّتك متقمصة شخصية عجوز
تشبه أُمّي وجدّتي...
لكي أعرفك بهما...
ولم تأتي...
ورجعت في ٩٥...
بمسرحية "عشاق المقهى المهجور"
ولم تأتي
رجعت لأعرفك بأّم جزائرية
تعيش مأساة أخرى
وقدّمتنا عرضاً لنساء فلسطينيات
جنّ من صيدا...

ولم تأتي
لماذا...؟...
أين اختفيت؟
أين كنت؟
في برج البراجنة؟
في النهر البارد؟
لماذا لم تأتي إلى بيروت؟
عايدة...
أين أنت؟
كيف أصبحت؟
أما زلت صامدة؟
أم استسلمت كالكتيرين هنا وهناك؟
شكوا...
فاكتفوا بالدفاع عن مصالح شخصية
نسوا أوطانهم ودفنوا القضية..
لا.. عايدة.. لا
لست مثلهم
رأيتك عايدة
أخيراً رأيتك
رأيتك على حافة قرن يحتضر
تقولين له انتصفت ولم تُنصِف
فلن تخرج من غير أن تعدل
هذه المرة لن تكون شرارة بل ناراً تتلظى
لم تعد تكفي أسطورة الحجر
رأيتك وسط شباب مجنّد
رأيتك تعطين بندقية
رأيتك تسعفين جرحي
رأيتك تحملين طفلاً رامي حجر
رأيتك تواسين أمّاً تنعي ابناً درّة عين
رأيتك بجانب فتاة تصرخ في وجه جندي
مدافعة عن بيت الشرق
رأيتك مع الذين جرفوا منازلهم واقتلعوا
زياتينهم
رأيتك محبوسة داخل حدود قرروها
ويحاولون أن يثبّتوها
ورأيتك جدة تحت قصف المروحيات
والطائرات
ماسكة يد حفيدتك ابنة جفرا
تروين لها قصة بيت من حجر
قالوا ضاع واندثر
فتقولين لها اغمضي عينيك وما ترين إلا
ما أصفه لك
فتصوّرين لها الغرف والأثاث
الألوان والروائح
بهرة الصباح وانعكاس أشعة الشمس على
الستائر
ظلمة الليل وانزلاق القمر على الوسادة
وتصفين لهم طعم حلوى الجدة
وعذوبة صوت الأم مذ كانت تغني
ثم تهمسين لها
انسي رائحة النار والدمار
واستنشقي
إنها رائحة البحر ممزوجة بأريج أزهار
البرتقال
إنها رائحة يافا
لا تخافي إننا لعائدون إليها عائدون
ثم رأيتك ترفعين رأسك
وتحدقين في وجهي
قائلة
أنا وحدي مع شعبي
وأين أنت؟
أبالكباء نحرر الأراضي؟
أبالأحلام والأشعار نمنع قتل الأطفال؟
أبالكلام نسترجع حقاً سلبته منا الأفاعي؟

أصابوه في عينيه
 فهدد وتوعد مَنْ لم يسأله
 ووعد بأرض لَمَن يسكت
 لكنك لن تسكتي
 تريدين يافا ولا شيء غير يافا
 وستصلين إلى يافا

 أبعدوك
 وتناسوك
 قالوا لك لست من هنا
 ولا حق لك في العودة
 لكنك صامدة عايدة
 البيت لك
 والمفتاح عندك

 عايدة...
 لو كنتُ عصفورة
 لأخذتك على جناحيّ وطرت
 ولرفرفت بك على أرض فلسطين
 محلقة فوق سهولها وتلالها
 جبالها وحقولها
 تينها وزيتونها
 من حيفا إلى نابلس
 ومن القدس إلى يافا
 ولوقعت بك على غصن شجرة البرتقال
 في بستان بيتكم...
 في حي الرشيد في يافا

 عايدة
 سُكّي في كل شيء... إلا في العودة

ماذا فعلتِ؟
 أين أنت يا من أنشدت لي
 "وينكم يا أصحابي
 أش صادكم يا ناسي
 أش بيه حسّكم قلّ
 أش بيه ذراعكم ملّ
 أش بيه راسكم ذلّ
 أش بيه شرابكم يا أحبابي
 أش بيه شرابك خلّ"
 فترينني أمهمه حائرة
 ما العمل؟
 مددت يدي فقطعوها
 أهديت دمي فهدروه
 صرخت فأضاعوا صوتي في غوغاء
 خطاباتهم
 فاكتفيت بعد الموتى والتصدي للنسيان
 أعترف يا عايدة أنك أصبحت بطلة مسلسل
 تلفزيوني
 أعترف
 لكن ما العمل؟
 ما الحيلة للوصول إليك؟
 كيف أنسى خوفاً
 وأتجاوز جبني؟
 كيف أتحمل العيش بعد فقد موتاي
 وأتحدي الموت مثلك؟
 عايدة يا عاشقة الحياة
 لا تديرني وجهك عني
 ولا تياسي مني
 فأنت نجمتي التي تهديني للطريق
 خاصة اليوم
 اليوم والأرض فيه ترتعش
 تحت أقدام عملاق متجبر وغازب

بيتك من حجر
وسقفه قرميد
وحوله بستان
مزروع ليموناً
وبرتقالاً
وأمامه البحر ■

حياتنا قصيرة
أمّا الزمان طويل
لو كان موش إنت جفرا
ولو كان موش جفرا بنت جفرا
المفتاحُ عندك
ولا تنسي

من منشورات مؤسسة الدراسات الفلسطينية

الأوقاف والملكيات المقدسية دراسة لعقارات البلدة القديمة في القرن العشرين

منير فخر الدين و سليم تماري
تقديم: شادية طوقان

١٠٠ صفحة ١٢ دولاراً